مقالة في نقد

التربية الإيجابية



زيد بلال

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وبعد:

فقد كثرت الأسئلة عن ما يسمى بالتربية الإيجابية، ومدى موافقتها لشريعة الإسلام أو مصادمتها له.

فالتربية الإيجابية بنت البيئة الغربية المادية، ونتاج النظرة الليبرالية للتربية، ومع ذلك تقول بعض الأخوات الفاضلات بملء الفم بأنها لم تجد شيئا يخالف الإسلام فيها!

وليس لك مع هذا الكلام إلا خياران:

إما أن المتكلمة لا تعرف الليبرالية والبيئة الغربية التي أنبتت التربية التي يسمونها إيجابية، أو أنها لا تعرف الإسلام ومصادمته للتصور الغربي عن الخالق والكون والإنسان والحياة، وعن الغاية والسبيل والنهاية، وعن المرجعية والمصدر والمنبع للتصورات والقيم والموازين والمعايير؛ ومن ثم أثر كل ذلك على التربية وعلم النفس وعلم الاجتماع والاقتصاد والسياسة، وكافة ما يتعلق بالإنسان في حياته.

سأقوم في هذه المقالة بإلقاء الضوء على بعض التنظيرات الخاطئة للتربية الإيجابية، والتي ينتج عنها معاملات مجرمة تنشئ أجيالا مهترئة وهشة نفسيا، لا تحتمل هزات الحياة ولا مطباتها وخشونتها.

والبداية ستكون مع منبع النظرية: ألفريد أدلر، وأثر تجربته الذاتية في فلسفته النفسية ورؤيته لتربية الأطفال، بعد مقدمة تأصيلية في غاية الأهمية، ثم سأذكر كليات هذا النوع من التربية ونبين ما فيها من مطبات ومخالفات.

مقدمة

الإسلام له تصوره الخاص للخالق والكون والحياة والإنسان، ولهذا التصور خصائصه ومقوماته الخاصة، والمختلفة تمام الاختلاف عن كل تصور بشري أرضي وكل مذهب أو فلسفة أو دين، وللتصورات والعقائد أثرها الكبير الضخم على حركة الإنسان في الدنيا، وعلى اختياراته وحركته في الحياة، وعلى غايته وهدفه العام منها.

لنضرب مثالا على ذلك يبين بعد الهوة والشقة بين التصور الإسلامي وخصائصه ومقوماته، وبين المذاهب والأديان والفلسفات الأخرى.

ما الذي يمنعك عن ارتكاب جريمة قتل في الظلام حيث لا يراك أحد، أو يحجزك عن شرب الخمر والزنا خاليا، أو يوقفك عن سرقة مال شخص غائب، ولا كاميرا تصورك..؟ بل ماذا يدفعك لمساعدة عجوز على عبور الشارع، أو يلزمك أدبيا بالإحسان إلى الجار والمسكين وابن السبيل، أو إنقاذ طفل من الغرق وقد تهلك أنت..؟

لا يوجد قانون وضعي واحد وجد على كوكب الأرض يستطيع أن يلزم الناس أخلاقيا ويردهم عن الإفساد وهم خالون مختفون من سلطته، أو يرغبهم في الفضائل والأخلاق ولا رقيب.

حيث أن الإلزام الأخلاقي لا ينبع إلا من ذاتك ولا يصدر إلا عن نفسك وبمحض إرادتك، وإذا انعدم الإلزام انعدمت المسئولية وضاع الأمل في إقامة العدل وعمت الفوضى وساد الاضطراب.

فالقانون لا يكفي وحده لضبط السلوك الإنساني، بل يحتاج لأخلاق يحملها الناس في خلواتهم وتحملهم هي على فعل الخير وترك الشر، فعلى أي قاعدة يا ترى يجب أن تقوم الأخلاق ليتبعها البشر ويلتزموا بها؟

لابد من دين تستند عليه قاعدة الأخلاق ليحولها لقوانين أخلاقية قدسية، و(كلما كان الدين كاملا بسط جناحيه على علم الأخلاق كله، بل على سائر القوانين المنظمة لعلاقات الأفراد والشعوب ويصبغ كل قواعدها بصبغته القدسية) كما قال الدكتور مصطفى حلمي في "فلسفة الأخلاق."

العقيدة هي التي تجعل للأخلاق فعالية وإيجابية مؤثرة، والأفكار المجردة لا تصبح عاملا مؤثرا فعالا إلا إذا تضمنت عنصرا دينيا، ولذلك لا تصح المقارنة بحال بين الأخلاق الدينية والأخلاق المدنية، فالإنسان بطبيعته لا يتحمس للخضوع لقواعد السلوك لمجرد أنها ممنطقة، أما إذا اعتبرها منزلة من ذات إلهية فتكتسب عنده قدسية بالغة، ويكون اتباعه لها طاعة للأوامر الإلهية نفسها.

ودونك المقارنة بين تحريم الإسلام للخمر، واستجابة الصحابة له، وبين محاولة دول وحضارات عديدة مجرد حصارها وتقليلها فلم يفلحوا، وإذا لم تكن الأخلاق قدسية معظمة؛ فما أسهل مخالفتها على البشر.

ناهيك عن القول بنسبية الأخلاق واختلافها باختلاف الزمان والمكان، ونفعيتها المادية وجعله هو المعيار كما تقول الليبرالية = إفسادا لحياة الناس وإدخال الاضطراب والفوضى والهرج والاختلاط عليها.

إذن لابد من دين، لابد من عقيدة؛ ليقوم عليها هذا البناء الأخلاقي وتحويله لقانون فيه معنى الإلزام.

وقد سلك الإسلام في ترسيخ ذاك الإلزام سبلا شتى، من أهمها مركزية الدار الآخرة.

مركزية الدار الآخرة مثلا في التصور الإسلامي تؤثر تأثيرا بالغا على المرء، في مقابل عدم وجود آخرة في الأديان الإلحادية كالبوذية والشيوعية، أو كون الكاهن والقسيس تبعا للمسيح يقدرون على حمل ذنوب العبد كما في النصرانية، وغير ذلك

من الفلسفات والأديان التي يغيب عنها ومنها هذا البناء الذي يصلح الدنيا ويقيم النفوس على الصلاح والعدل والاستقامة.

في ديننا العظيم وشريعتنا الكبرى تستقيم الحياة الدنيا في كل مجالاتها الضرورية والحاجية والتحسينية، ويتشبع متبعوه بمحاسن العادات وكريم الصفات، وتقل أو تندر عند معتنقيه بحق خسيس النعوت ووضيع الحاجات؛ لارتباط ذلك كله بالآخرة، ويوم القيامة يوم الجزاء والحساب والإثابة والمعاقبة هو الباعث الكبير الحاضر أمام البشر في كل خلواتهم وحضورهم.

ولذلك اهتم به الإسلام إثباتا وتدليلا وشرحا وتفصيلا، وجعله ركنا ضخما من أركان الإيمان، وثالث ثلاثة عمد يقوم عليها دين الأنبياء في كل زمان: الإيمان بالله والنبوة والمعاد، وشريعتنا أكثر الشرائع تفصيلا في ذكر الدار الآخرة، مع معقولية كل ذلك وموافقته لصرائح الألباب والنهى.

في الشريعة ثم مؤيدات و"ضوامن" كما تسمى في ألسنة الفقهاء؛ تصون الحكم الشرعي عن الانتهاك من المكلف، وتحمي نفسها بنفسها، في منظومة كلية متكاملة تخاطب كل ذرة فيه، وقد قال الزرقا في "المدخل الفقهي العام" معرفا المؤيدات بأنها: "كل ما يشرع من التدابير لحمل الناس على طاعة أحكام الشريعة الأصلية."

فهناك أحكام "أصلية" شرعها الله لبيان وتنظيم الحقوق والواجبات، وهناك أحكام "تأييدية" وضعت لحماية القسم الأول، وضمان تطبيقها، وحمل المكلف على تنفيذها وحفظها.

والمؤيدات أخروية ودنيوية:

الأخروية كالتي وردت في الوحيين ترغب المكلف أو ترهبه، بغض النظر هل لفعله عقوبة دنيوية أم لا، فهناك ما لا يمكن الوقوف عليه في الظواهر كالحسد والنميمة والكذب؛ فتقوم "الزواجر" بتنفير العبد منها، وتحذيره من الوقوع فيها.

والمرغبات كالتي تشوق للفعل وتحث عليه، وتعد عليه بالثواب العظيم، وتظهر نتائجه في الدنيا من الحياة الطيبة المطمئنة؛ فيندفع المكلف للعمل بوازع داخلي شخصي، وباعث ومراقبة قلبية.

ومراقبة الله الناشئة عن هذين الأصلين مما تنفرد به الشريعة الربانية عن قوانين البشر؛ فيؤثر العبد رضا ربه ولو لم يكن ثم "رادع" دنيوي، فهو يبتعد عن انتهاك الحرام طوعا واختيارا.

وقد رأينا الأمم التي يسمونها متحضرة، ويعيشون في أكثر الدول ليبرالية، في جائحة كورونا الأخيرة، وهم يتقاتلون على ورق التوليت حتى قتل بعضهم بعضا ولم يقتلهم الفيروس، ورأيناهم عندما يغيب قانونهم كالهمج وقطعان الحيوانات المفترسة وهم يهجمون على أحد المحلات الكبيرة لسرقة السلع وكل ما يقدرون على حمله، في صورة من أبشع صور الهمجية.

فهؤلاء لا تحضر الدار الآخرة في نفوسهم، ولا ينتظرون ثوابا أو عقابا في حياة أخرى، فجلهم ملاحدة لا يؤمنون برب، أو نصارى سيحمل عنهم المسيح خطاياهم، هذا في حال فكروا لحظة فقط فيما فعلوا وتأملوا فيه.

هذا المثال يبين لك أن للإسلام تصوره الخاص لحياة الإنسان وغايته منها وسلوكه فيها، وهو بناء متكامل تام لا يحتاج لشيء من خارجه ولا يمكن إضافة أو حذف أي مكون من مكوناته، ونزع معلم متجذر من معالمه كمركزية الدار الآخرة مثلا، واستبدالها برؤية تذهب إلى أن الإنسان وجد ليحقق ذاته ويشبع رغباته -هنا والآن- ويصبح مواطنا صالحا كما تقول الليبرالية؛ جريمة مضاعفة.

فخلط الإسلام بأي مذهب أو فلسفة أو رؤية غير رؤيته ينتج كائنا مشوها مسخا لا معالم واضحة له، يستوي في ذلك جميع المذاهب والتصورات والأفكار والفلسفات.

ولما كانت الليبرالية هي الدين العالمي المنتصر، وله السطوة والعلو والظهور؛ طفق مثقفونا وعلماؤنا في جميع المجالات ينهزمون أمامها نفسيا وينسحقون دونها

حضاريا، فيخلطون كلمات الإسلام بالليبرالية ويخضعونه لها، ويغيرون معالمه وتصوراته ومقوماته لتتوافق مع دين أباطرة العالم الذي هو الليبرالية؛ فأنكروا حد الردة والربا والقوامة والجزية والتعدد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد ودار الإسلام ودار الكفر وتقسيمات الكفار لحربيين ومعصومين، والمعصومين لمعادين ومستأمنين وأهل ذمة، كما طوعوا الاقتصاد والسياسة وعلم الاجتماع وعلم النفس والفن والأدب والتربية وغير ذلك من العلوم والفنون لمزاج الليبرالية واختياراتها في الحياة ووجهتها في الكون.

ومما استجلبه قومنا من بيئته الغربية الليبرالية المادية، ودرسوه للناس ونشروه وبثوه مادة "التربية الإيجابية"، وهي بنت الليبرالية وغرسها، وتحمل صفاتها ورؤيتها ووجهتها في الحياة وغاية الإنسان، ومن ثم فهي ليست وعاء محايدا يمكن ملؤه بأي شيء، بل هي وعاء وفيه سائل تابع للوعاء، صانعهما نفس الشخص، ومنبتها من نفس الأرض.

فالإنسان في تصور الإسلام ليس مجموعة حاجات جنسية ومادية تحددها له شركات الأزياء والإعلانات والسلاح، بل هو كائن اجتماعي حضاري له تاريخ وعلاقات أسرية ومجتمعية وله مرجعية أخلاقية، فنحن نؤمن بمركزية الله وشريعته -لا الإنسان ولا الطبيعة- وكونه المرجعية المتجاوزة العليا؛ ولذلك يجب الخضوع لتشريعاته جميعا.

هذا كله سينعكس على عملية التربية مفهومها ووسائلها وغايتها.

ولهذا لا يجوز اشتقاق منهج تربوي نابع من تصور آخر غير تصور الإسلام، بل ولا خلطهما بأي شكل من الأشكال، ولا يجوز لمسلم -إذا كان مسلما حقا يؤمن بشمولية الإسلام وربانية مصدره وكفايته لهداية البشر وصلاحهم- أن يأتي الإسلام لاشتقاق منهج واستخراج رؤية في التربية أو الاقتصاد أو غيرهما وهو محمل بإرث خارجي أو أحكام مسبقة أو تصورات منبعها غيره .

فأخذ وعاء غربي هو التربية الإيجابية ومحاولة وضع الإسلام ومفاهيمه ورؤيته وغايته وهدفه داخلها ، وتربية النشء والأطفال عليها غير مستقيم ولن يكون، كمثل محاولة البعض الجمع بين انفراد الله بالتشريع في الإسلام وانفراد البشر بالتشريع في الديموقراطية، محاولة ميتة في المهد لأنها متناقضة في ذاتها.

تنتسب التربية الإيجابية لعالم النفس الشهير أدلر، وكون الرجل غربي المنشأ علماني التصور كان كافيا كما يفترض لرد أي منتج من منتجات الحضارة الغربية التربوية المحملة بحمولة ورؤية واضعيها العقدية والفكرية والأيدولوجية، وهو ما يظهر في قسمات الوجه الظاهر للتربية الإيجابية، كما سنوضحه.

ومع ذلك فعلم النفس علم ذاتي في غالبه وفيه من المصادرات والزعم ما الله به عليم، فهو عبارة عن تجربة العالم نفسه ورؤيته الذاتية التي لا يمكن البرهنة عليها ومجموعة ثقافاته وقراءاته وخبراته المتعددة، وتعميمها على عالم البشر صغارا وكبارا ، ثم تشتق منها النظريات ويكتب حولها الكتب فيما بعد.

لماذا يجعل كل عالم نفس تجربته الشخصية هي محور نظريته التي يحاول تعميمها بعد ذلك على غيره من البشر..؟! مع أنها ذاتية محدودة.

سأوضح في المقال التالي، كيف كانت طفولة أدلر ورؤيته الذاتية هي محور رؤيته التي أراد تعميمها ونشرها وقد كان، ثم تلقفها قومنا بلا أدنى نظر أو روية أو تمحيص.

أدلر (أبو التربية الإيجابية)

علم النفس علم علماني مادي، أقصى سلطة الإله أولا ، وتعامل مع الإنسان الطيني كجسد فقط، ثم هو علم ذاتي في غالبه، وفيه من المصادرات والزعم ما الله به عليم، فهو عبارة عن تجربة العالم نفسه ورؤيته الذاتية التي لا يمكن البرهنة عليها ومجموعة ثقافاته وقراءاته وخبراته المتعددة، وتعميمها على عالم البشر صغارا وكبارا ، ثم تشتق منها النظريات ويكتب حولها الكتب فيما بعد.

لماذا يجعل كل عالم نفس تجربته الشخصية أو رؤيته الذاتية هي محور نظريته التي يحاول تعميمها بعد ذلك على غيره من البشر..؟! مع أنها ذاتية محدودة.

لنضرب مثلا على تلك المصادرات والزعم بنظرية عالم النفس الشهير "إيرك بيرن" بأن كل إنسان يحمل بداخله ثلاثة شخصيات :

"الأب" ذو التفكير التوجيهي.

و"الراشد" ذو الموضوعية والعقلانية.

و"الطفل" ذو الدلال والفضول والانفعالية والصغر.

وأننا نظهر في أي موقف اجتماعي إحدى هذه الشخصيات الثلاثة! أي يكون من يكلمك ويناقشك ويتهرب منك هو شخصية الطفل في الحقيقة وأنت تحسبه راشدا.

لحظة.. لماذا جعلها ثلاثة فقط؟ ما هذه المصادرة بلا دليل ولا إثبات؟ لماذا لا تكون أربعة أو خمسة أو اثنين؟

لماذا لا نضيف شخصية "الجد" الذي سئم الحياة والناس ويتمتع بدرجة لامبالاة كبيرة، أو شخصية للجنس المخالف، فيحمل الرجل في بعض الأحيان شخصية أنثى رقيقة تتلطف زيادة عن اللازم، فحينها نقول أن من يكلمنا الآن هذا الرجل في صورة امرأة بداخله، ثم يتحول بعد لحظات لشخصية الجد أو الطفل، أو تحمل المرأة في بعض الأحيان شخصية رجل عندما تظهر تمردا وتصلبا على غير العادة،

وهكذا يمكننا أن نضيف شخصيات ونحذف أخرى دون توقف، ما دام الأمر محض دعوى بلا أدنى دليل .

هل رأيت مصداق ما أقول..؟!

كل عالم نفس يقرر تقريرا ما هكذا مصادرة، ثم ينشره في كتاب ويسير في الناس، وهو لا يملك دليلا واحدا على ما يقول، ولن يملك.

ألفريد أدلر؛ عالم النفس الشهير، كما ذُكر في ترجمته وفي عدة مصادر ككتاب توم باتلر "أهم ٥٠ كتابا في علم النفس" وغيره، كان يعاني من مرض رئوي في طفولته، فأثر ذلك على معنوياته ونفسيته تأثيرا بالغا، ويبدو أنه كان يتعرض للسخرية من الأطفال في سنه، وكذلك يظهر أن لترتيبه بين إخوته سببا في الحط عليه ممن حوله والتحقير منه؛ ظهر أثر ونتائج هذا كله في نظرياته وكتبه.

فابتكر مصطلح "عقدة النقص"، وزعم أن الأفراد في حالة نضال دائم لتحقيق الأهداف وأن الأطفال يتمحور اهتمامهم بزيادة قوتهم في العالم، لأن نشأة الأطفال في بيئة يرون فيها كل من حولهم أكبر حجما وأكثر قوة تجعلهم يبحثون عن أسباب القوة.

ولا ندري بأي دليل استدل أدلر على ما زعمه، إلا طفولته هو وحاجته هو لما عممه من بعد على أطفال الدنيا..؟ !

وكما هو متوقع؛ علق أدلر أهمية كبرى على ترتيب الطفل بين إخوته كنموذج مصغر لما زعمه من توجه جميع الأطفال مع الحياة الخارجية والكبار، فيكون كل طفل نظرا لصغر حجمه وضعف قوته معنيا بزيادة قوته، ومحاولة التفوق على إخوته الأكبر سنا.

باختصار، يرى أدلر في أطفال العالم صورة الطفل أدلر المريض العاجز، الثاني في الترتيب بين إخوته، ولذلك جميع أطفال العالم يبحثون عما يعوضهم عن شعور

النقص الذي صك له مصطلح "عقدة النقص"، ولما كان أدلر يتوق للشعور بالقوة والأهمية بسبب تأثير كساحه قال لما كبر وأصبح عالما: (تظهر آلاف المواهب والقدرات نتيجة شعور البشر بعدم كفاءتهم).

كتب أدلر عن نابليون أنه رجل ضئيل ترك أثرا هائلا على العالم، كنموذج كلاسيكي قياسي لعقدة النقص التي زعمها.. نابليون قصير ضئيل، وقطعا سيعاني بسبب قصره من عقدة نقص؛ فتسببت تلك العقدة في صنعه المعجزات!!

بعض الأقوال الباطلة يكفي فقط مجرد تأملها قليلا؛ لنكتشف أنها لا تساوي الحبر الذي كتبت به.

ثم يتحدث أدلر في نظريته عن الدونية التي يشعر بها الطفل -من أين أتى بهذه الدونية، لا نعرف-، ولذلك طالب بأن تكون التربية الجيدة للأطفال محررة لهم من الشعور بالدونية، هذا مثال لما كان أدلر عالم النفس يتمنى أن يُعامل به أدلر الطفل المريض، وتحرير الطفل من الدونية تكون بإشعاره بأنه متفرد متميز يستحق الأفضل كما سيأتي.

وعليه، فأدلر اعتبر أن "الشخصية" تتكون من خلال ما كان يفتقده هو، أي الحاجة للقوة وتعظيم الذات، والحاجة للشعور الاجتماعي والتقدير من الآخرين.

مع أن الحاجة للجماعية والاختلاط تؤديان ولابد إلى أن يفقد المرء بعض قوته ويضطر لترك ذاته المعظمة جانبا، فالناس لا يحبون المتكبر المستعلي عليهم، والمختلط بالناس كما سيغنم منهم سيغرم ولابد؛ فالغنم بالغرم، ومع ذلك اعتبرهما أدلر مكوني الشخصية الأهم لأنه كان هو من يفتقد إليهما نتيجة ظروفه الشخصية الذاتية.

الطفل المريض لا يستطيع الاختلاط بالمجتمع واللعب واللهو والمشاركة كما ينبغي، فمرضه يمنعه من ذلك، ولا يحصل على إعجاب الآخرين ولا يحصد كلمات الثناء وتغيب أي مجاملة اجتماعية بالطبع؛ ولذلك أكد أدلر على أهمية الجماعية والحاجة

للشعور الاجتماعي تأكيدا مبالغا فيه حتى جعلها إحدى شقي الشخصية، و"التوافق مع المجتمع أهم وظيفة نفسية من الممكن أن يجيدها الفرد" كما قال.

فخدمة المجتمع هنا والتوافق معه والإسهامات لصالح الآخرين دلائل السواء النفسي عند أدلر، ولا يستطيع المرء الالتفاف على قوانين ومبادئ المجتمع والتزامات الأسرة، فكل إنسان بحاجة لباقي أفراد المجتمع حتى يعيش بدنيا أو ذهنيا.

يكرر أدلر كثيرا أن كل شخص متفرد عن غيره، وهذا مفهوم تماما في بيئة عومل فيها طفل ما بإهمال تام أو بلا مبالاة أو بعدم تقدير أن يصرح بملء فمه بعد الكبر: أنا نبيل متفرد.. لكن الغريب أن يعممه على جميع أطفال الدنيا ، وأن يطالب بالنص عليه في مناهج تربية الأطفال، وهو ما سيظهر أثره مضخما مغاليا في "التربية الإيجابية" من بعد.

التفرد.. سمة الأجيال الحديثة، والتي بثها أدلر في العشرينات قديما ، ثم أعاد نشرها بعض الكتاب عن "التربية الإيجابية" في الثمانينات وما بعدها -جين نيلسن وغيرها-، وهي متوافقة مع روح الليبرالية للغاية.

تقرأ في كتب التربية الإيجابية دوما فصولا بهذا المعنى :

ربوا أولادكم على أنهم متفردون متميزون، يستحقون الأفضل.. التفرد.. ها هنا إنسان فائز.. يحتاج الطفل أن يعلم بأنه متميز.

لحظة.. من قال أنهم يستحقون الأفضل؟ من أين أتى هذا الاستحقاق ولأي سبب؟ ماذا لو كانوا سيئين وشبوا لا يستحقون إلا الأسوء؟ لماذا يستحقون الأفضل ساعتها؟ وماذا لو ابتلوا وامتحنوا بالأسوء والدنيا أصلا دار اختبار وامتحان، ماذا سيكون شعورهم وكيف سيصبرون على بعض البلاءات البسيطة وهم ينتظرون مستحقاتهم؟ ومن ذا الذي سيعطيهم ذاك الأفضل وينثره على رؤوسهم بلا سبب، أين هذا في الواقع؟ !

أفيقوا أيها القوم، نحن في العالم الحقيقي.

كل شخص ربي هذه التربية يظن نفسه متفردا رائدا يستحق أفضل معاملة ولو أتى أفحش الأخطاء والمثالب، وهو نفس السبب الذي جعل هذا الجيل -جيل رقائق الثلج- هشا للغاية سريع الانكسار؛ لأن الحياة الحقيقية الصلبة ليس فيها هذه المعاملة المدللة، ماذا سيشعر الطفل -الذي يظن نفسه يستحق الأفضل- بعد أن يكبر، ويجد أصدقاء المدرسة أو زملاء الجامعة أو أصحاب العمل ينادونه بألفاظ سيئة أو تهكمية؟ حسنا؛ احمله على النقالة فورا للطبيب النفسي.

مشاكل الحياة الطبيعية ومطبات العمل والوظائف والنقد الموجه لحضرات هذا الطفل الذي بث والداه في روعه أنه متميز متفرد يستحق معاملة الأمراء؛ تجعله بعد الكبر هشا ضعيفا تجرحه أقل كلمة ويشعر بالإهانة من أقل موقف، وبالتالي يصبح كثير التردد على العيادات النفسية والأطباء والمدربين النفسيين، فهو يضيف المرض النفسي لكل مشكلة تواجهه.

عذرا أدلر.. التفرد واستحقاق الأفضل وانتظار الطفل معاملة طيبة مهما ارتكب من أخطاء هراء لا دليل عليه أولا، ثم هو ينتج أجيالا أضعف من خيوط العنكبوت، لا تحتمل صفعات الدنيا.

هذه مصادرة مرفوضة، بل مجموعة مصادرات لا أول لها من آخر، من قال وما الدليل أن الأطفال يولدون بعقدة نقص بسبب صغر أحجامهم؟ ثم من زعم من بعد أن الأطفال يبحثون عن زيادة قوتهم؟ ثم من أين أتيت بقصة استحقاق الأفضل هذه؟

فروض ومصادرات ليس عليها أدنى دليل، ولن يكون.

بديهي أنه ليس كل طفل في العالم يعاني الإعاقة البدنية أو الذهنية أو يتلقى معاملة غير سوية في بيئة لا تهتم إلا بالأصحاء كما حصل لأدلر، فمعرفة حياة أدلر وطفولته تهوي بنظريته ونظرته كلها إلى قاع بئر مظلم، فهي ببساطة شديدة خاصة به وحده، ولا يمكن تعميمها بأي حال من الأحوال.

كيف انعكست تنظيرات أدلر وأمثاله على مناهج التربية الإيجابية..؟!

العملية التربوية في مناهج التربية الإيجابية تكاد تكون متمحورة حول الطفل تقصي كل سلطة عليه، فهو أصل وركن وجوهر العملية التربوية، بينما المربي والمعلم مجرد منشط، فالطفل والمتعلم في تلك المنظومات والمناهج نواة وقطب رحى، تدور حوله كل العمليات التربوية، والقوانين ترجح مصلحة الطفل والمتعلم وتجعلهما فوق كل اعتبار.

يقول الأستاذ حنافي جواد في مقاله "نقد مناهج وبرامج التربية:"

(بينما التربية التقليدية القديمة كانت تمنح الصلاحية لكل أفراد المجتمع بالمساهمة في التربية والتوعية والنهي عن المنكر والتدخل، فإن المناهج الحديثة تضع الحدود لكل المتدخلين -حتى الأب والأم-، حدَّتْ للأفراد والجيران والمدرسين حدوداً، لا ينبغي أن يعتدوها).

ينتج عن هذا ولابد، تحرر زائد للطفل، فليس لأحد سلطة الحكم عليه، فضلا عن تأديبه وعقابه.

عدم الحكم على الطفل، عدم الحكم على الناس، لست إلها لتحكم عليه أو علي أو علينا، عليك أن تتوقف عن إصدار الأوامر، لا تفرض على الطفل قواعد ومبادئ توجيهية فلست سيدا عليه، دعه يفرض على نفسه ويلزم نفسه، الطفل يجب أن يتعلم لا أن يطيع.. إلخ=

كل هذا بعض أثر التصور الكلي لليبرالية، وتوسيع حرية الأفراد لأكبر قدر ممكن، وعدم اعتبار أي شأن لتشريعات السماء، ولا إقامة أي وزن لمخالفتها.

هذه الكلية الليبرالية انعكست في هذه المفردات التي تؤله اختيارات البشر، تبعا لمنظومة تأليه الإنسان واعتباره سيد الأرض.

هذه النظرية التي انبنت على تفرد الإنسان وعقلانيته ومن ثم معرفته لمصلحته، فالبشر كما يقولون كائنات عاقلة يسعون وراء مصلحتهم الذاتية (اللذة والسعادة)، ولذلك لا سلطة عليه من أحد ولا حكم لأحد عليه، ولا تقييم -فضلا عن عقاب بدني- طبقا لرؤية شخص آخر ولو كان أبويه، وتدعوه لطاعة القوانين وعدم الالتفاف عليها.

الكل سواسية تحت القانون، والقانون وحده هو الملزم وهو الجهة العليا، ويندرج تحت هذا التأكيد المثال المتكرر في كتبهم بوضع قانون من جانبي الطفل والوالد بالإشتراك والتساوي وخضوع الجميع له؛ كصورة مصغرة لطاعة الليبرالي للقوانين التي يخضع لها الجميع.

أقول، هذه النظرية تنتج ولابد المواطن الليبرالي الصالح، العبد النموذجي الذي يتمرد على سلطة الإله والأبوين، لكنه مع ذلك يطيع القوانين ولا يحاول التمرد عليها مهما كانت ظالمة أو جائرة أو غير منطقية.

من كليات التربية الإيجابية

تمهيد:

تصور معي فتاة عوملت وهي طفلة بشيء من قسوة أو عاشت في بيت يسب بعضهم فيه بعضا أو لم ترب أصلا -كغالب البيوت المعاصرة- وأهملت وأدركت ذلك بعدما شبت؛ قد يكسرها ذلك عند الكبر أو يجعلها هشة وعاطفية بزيادة، تتسول خارج البيت المشاعر التي حرمت منها، والحب الذي لم يُسْق به قلبها حتى بار وتشقق.. هذه أرض خصبة للافتتان بنموذج التربية الإيجابية.

في ظل انعدام التربية الحالي، وانفصال أكثر آباء وأمهات الأسر المعاصرة عن أبنائهم حقيقة أو حكما، فإن أكثر ما يعجب الناس في "التربية الإيجابية" أنها تجمع في ظنهم بين أهم مقومين من مقومات التربية، فتبدو رحيمة وحازمة في نفس الوقت، وسأبين زيف هذين الادعائين بعد قليل، فهي في الحقيقة ليست رحيمة بل آلية، وليست حازمة بل رخوة.

من المعالم الرئيسية لهذه التربية والتي تظهر بأدنى بصر هو نزع إنسانية التربية بمحاولة قوننة الحياة !

هي بنت الليبرالية وفي بيئتها نشأت، فالحياة كل الحياة تحولت من التراحمية إلى التعاقدية، من الإنسانية إلى الآلية.

وضع قوانين لكل شيء، دستور الأسرة وجداول الحلول وكتابة المقترحات وإقامة اجتماعات أسبوعية في الأسرة وتحديد المواعيد الثابتة الصارمة وتدوين الملاحظات بين أفراد الأسرة بالتناوب، فيعلن رئيس الأسرة بدء الاجتماع حيث يقوم بقراءة البنود التي وضعت على الثلاجة من قبل ليراها الجميع، وعند المناقشة يتم تنظيم الأشخاص الذين يرغبون في الكلام، ويقوم مدون الملاحظات بكتابة وتسجيل المقترحات، ووضع دائرة حول ما تم الموافقة عليه من بين تلك المقترحات، ثم

التصويت على المقترحات والحصول على موافقة كل فرد من أفراد الأسرة قبل القيام بالتنفيذ.. إلخ.

هل تضحك..؟!

أقسم لك بالله أن هذا منقول نصا من أشهر كتاب في التربية الإيجابية لجين نيلسون وآخرين، في أول فصل فيه عن اجتماعات الأسرة.

بل يصل الأمر إلى تحديد وقت معين لمساعدة الطفل في شيء ما من السابعة للتاسعة مثلا، وبعدها فلا وجود لماما في البيت، بزعم الانضباط وإنما هي تعاقدية تحول الحياة لآلية وتنزع عنها روحها الإنساني.

أو قول عبارات آلية محفوظة في المواقف المختلفة يلقنونها للآباء ومن ثم للأبناء في كل حادثة؛ فتقتل في الطفل روحه الذاتية وتحوله لآلة صماء، تحرص على المجاملة والاتيكيت مع كل شخص بغض النظر عن أي اعتبار آخر.

هؤلاء القوم بعقليتهم المادية الصارمة، وليبراليتهم التي تعظم قوانين البشر واحترامها لدرجة التأليه= انعكس ذلك على طرائقهم التربوية، حتى لا تدري أهي تتحدث عن أسرة أم شركة أو مصنع!

محاولة التنظيم المفرط، والبيروقراطية الغالية، وما سماه المسيري بالتعاقدية، محاولة تقنين الحياة! بهذا الشكل تقضي على إنسانية الإنسان وروحه التراحمية، وتحوله لآلة غليظة باردة، فيشب هذا الطفل هو هو من بعد الذي لا يجد لوالديه مكانا إلا دار المسنين.

تنظيم كل شيء ووضع قانون لكل فعل، وتحديد نوع العاقبة كما يسمونها لكل مخالفة، فهم يسمونها عاقبة ولا يحبون لفظ عقاب، أي عاقبة فعل الطفل بزعم تحمله المسئولية، والتعاقد معه على كل فعل إنساني ينزع عنا معنى التراحمية ويحولنا لكائنات تعاقدية.

(يعني "التراحم' هنا وجود أبعاد غير مادية في العلاقات بين الأفراد ، أي أن علاقات البشر ذات طبيعة إنسانية لا تتأسس على المنفعة الشخصية وحدها ، ومن ثم فهي ليست علاقات عقلانية مجردة ، أو تعاقدية نفعية محضة، بل هي علاقات عضوية مركبة، والتراحم مبدأ ينظم مجموعة من المفاهيم الأخلاقية كالترابط والتعاون والإيثار).

من أبرز أطروحات الدكتور المسيري الفكرية ما طرحه حول "المجتمع التراحمي' و"المجتمع التعاقدي' ، وإسقاطه لهذه الأطروحة على حياته ابتداءً من نشأته في مصر إلى انتقاله إلى أمريكا لإكمال الدراسة.

حيث يوضح أن المجتمع التراحمي باختصار هو المجتمع الذي تقوم علاقاته على التراحم والتعاطف بين أفراده، على النقيض من المجتمع التعاقدي الذي تقوم العلاقات فيه على أساس تعاقدي ومصلحي.

نستطيع أن نرى المجتمع التراحمي في المجتمعات التقليدية، حيث يذكر المسيري مثالاً على ذلك نظام مساعدة العريس "النقطة' في الأفراح المصرية، حيث يتم دس المال في يد العروس (للمساعدة) بحيث لا يراه أحد ، وفي إطار هذه العملية التبادلية يتم توزيع الثروة بين المجتمع، فعطاء الأثرياء يكون عادة أكثر من عطاء الفقراء.

ويذكر مثالاً آخر وهو علاقته مع عامله المصري حينما كان يدرس بالسعودية، فقد كان عامله الذي ينظف منزله كل أسبوع يصر على أن يقول عند لحظة تقاضي الأجر: "بلاش يا بيه، خليها عليّ هذه المرة' وهو في واقع الأمر -برأي المسيري- يقول: "برغم أنني أعمل خادماً عندك وأدخل معك في علاقة تعاقدية؛ فإننا من الناحية الإنسانية متساويان، ولابد أن ندخل في علاقة تراحمية تتجاوز عمليات التبادل الاقتصادية (خدمات مقابل نقود). ولهذا فلا داعي لأن تدفع لي هذه المرة .'

ولذا يقوم المسيري بإخباره -عمداً- عن عدم وجود نقود وتأجيل دفع الأجرة للأسبوع التالي، لإعطاء العامل فرصة أن يكون دائناً، لكي يتم تحقيق التساوي الإنساني التراحمي.

قوننة الحياة مع الطفل بهذا الشكل يعلمه التعاقدية في التعامل مع كل شخص، ماذا سأفعل لآخذ ماذا، ما هي منفعتي المرجوة، ما عاقبة الفعل الفلاني، كيف أستفيد من المال أقصى استفادة ممكنة وأربح الكثير، كل هذا ينبني على النموذج الفردي، الذي شاع في علاقات الدولة الحديثة، بينما تتسم المجتمعات التقليدية بالتراحم والإنسانية.

تخيل معي زوجة وزوجا يريدون كتابة دستور للعلاقة بينهما، ذا بنود كثيرة تحدد مهام كل طرف، والواجبات والحقوق لكل منهما، وتضع عواقب صارمة حال المخالفة، وتحدد مواعيد الطعام المنتظمة، بل حتى مواعيد الحضور والانصراف، عفوا أقصد النوم والاستيقاظ، ومواعيد الدخول والخروج بدقة بالغة، وكيفية معالجة المشاكل تدريجيا ببنود أخرى تحاول حصر صور العقبات التي تعترض الحياة.. إلخ.

هل هذه حياة زوجية إنسانية قوامها التراحم والتعاطف والمودة والإحسان، أم هذا تعاقد بين شخصين في افتتاح شركة أو مصنع..؟!

هذا عين ما تفعله التربية الإيجابية مع الطفل.. قوننة الحياة، ونزع صيغتها الإنسانية التراحمية، وتحويلها وتحويل الطفل معها لنوع تعاقدية مقيت، مبني على روح الربح والخسارة وحساب الغنم والغرم في كل موقف.

من كليات التربية الإيجابية:

١ -لا تحكم على طفلك:

العملية التربوية في مناهج التربية الإيجابية تكاد تكون متمحورة حول الطفل تقصي كل سلطة عليه، فهو أصل وركن وجوهر العملية التربوية، بينما المربي والمعلم

مجرد منشط، فالطفل والمتعلم في تلك المنظومات والمناهج نواة وقطب رحى، تدور حوله كل العمليات التربوية، والقوانين ترجح مصلحة الطفل والمتعلم وتجعلهما فوق كل اعتبار.

يقول الأستاذ حنافي جواد في مقاله "نقد مناهج وبرامج التربية:"

(بينما التربية التقليدية القديمة كانت تمنح الصلاحية لكل أفراد المجتمع بالمساهمة في التربية والتوعية والنهي عن المنكر والتدخل، فإن المناهج الحديثة تضع الحدود لكل المتدخلين -حتى الأب والأم-، حدَّتْ للأفراد والجيران والمدرسين حدوداً، لا ينبغي أن يعتدوها).

وتقول جان نيلسن: (يجب أن يتعلم الآباء الكف عن إلقاء المحاضرات والأوامر).

بل حتى المقترحات والحلول يجب أن تحصل على موافقة عليها من طفلك؛ حتى قالت جان نيلسن في "التهذيب الإيجابي من الألف إلى الياء": (يجب التصويت على جميع المقترحات، إذ يجب الحصول على موافقة كل فرد من أفراد الأسرة على المقترح، وذلك قبل القيام بتنفيذه).

ينتج عن هذا ولابد، تحرر زائد للطفل، فليس لأحد سلطة الحكم عليه على الحقيقة، فضلا عن تأديبه، فالرؤوس تكاد تكون متساوية عمليا، ورأي الطفل أهميته في مرتبة رأي والديه أو يكاد.

عدم الحكم على الطفل، عدم الحكم على الناس، لست إلها لتحكم عليه أو علي أو علينا، عليك أن تتوقف عن إصدار الأوامر، لا تفرض على الطفل قواعد ومبادئ توجيهية فلست سيدا عليه، دعه يفرض على نفسه ويلزم نفسه، الطفل يجب أن يتعلم لا أن يطيع.. إلخ=

كل هذا بعض أثر التصور الكلي لليبرالية، وتوسيع حرية الأفراد لأكبر قدر ممكن، وعدم اعتبار أي شأن لتشريعات السماء، ولا إقامة أي وزن لمخالفتها.

هذه الكلية الليبرالية انعكست في هذه المفردات التي تؤله اختيارات البشر، تبعا لمنظومة تأليه الإنسان واعتباره سيد الأرض، وقد سبق ذكر ذلك والتعليق عليه.

ومن ثم فإنكار العقاب البدني هو النتيجة الحتمية، بل وحتى العقاب اللفظي مرفوض، بل ولا تقول للطفل: أنت مهمل أو فيك إهمال، فلست حكما عليه.

مع أن العقاب البدني بكم معين وكيف معين وبضوابط معينة مفيد في كثير من الأحيان، كحالة العصيان العمد من الطفل وهو بوعي كامل أنه يعصيك، أو في حالة التحدي، هنا يجب ضرب الطفل فورا، بروية بالغة وبحذر وبلا غضب، لكن يجب ضربه في هذه الحالة،

وقد حدد الفقهاء كيفية وكم الضرب المباح -يراجع في مظانه-

ليس فقط رفض العقاب البدني، بل وحتى إخبار الطفل بما ينبغي الشعور به في موقف ما مرفوض، قالت جان نيلسن مستنكرة: (حتى إذا حدث شيء للأبناء تجد الآباء يخبرون أبناءهم بما حدث والسبب الذي أدى لحدوثه، حتى إنهم يخبرونهم بما ينبغي أن يشعروا به تجاه ذلك الشيء) لأن ذلك في زعمها يثبط من عزيمة الطفل!!

مع أن الطفل مثلا في تصورنا الإسلامي لا يعرف مثلا أن ذنبا ومعصية ما يستلزم منا توبة ورجوعا وإنابة لله وندما على ما فعلنا، فهو لم يجرب هذه المشاعر ولا يعرف أهميتها، فكيف يتلبس بها بعد البلوغ وهو لا يعرفها ولا يعرف أهميتها ولم يجربها.؟! وحتى في غير هذا المجال الشرعي، بل في المواقف الحياتية التي يقابلها أول مرة هو يتشرب مني أنا كيفية الانفعال والشعور، فأقول له سنذهب لتعزية عم فلان، يجب ألا تضحك أبدا وأن تقف ثابتا وأن تعزيه بقول كذا، والموت معناه كذا وينبغي أن يذكرنا بالآخرة والبعث والحساب.. إلخ.

ولذلك نحن نشحنه بكثير من المشاعر التي يجب عليه الشعور بها في المواقف المختلفة؛ لأنه غير مفطور على ذلك، وإلا لتركناه للصدفة والحظ، فقد يصل إليها وقد لا يصل.

ليس فقط العقاب البدني أو اللفظي أو الحكم عليه أو إخباره بالمشاعر المفترضة في المواقف المختلفة؛ بل وصل الأمر لاعتبارهم فرض الوالدين احترامهما على الطفل أمر مرفوض مشين، وإنما هناك نوع ندية مغلفة ولذلك تتساوى الأصوات في اختيارات حلول المشاكل، فأنت تحترمه وهو يحترمك في علاقة تكاد تكون متكافئة أو متساوية القدر، وبالطبع لن يكون هناك أي مجال لحمل الطفل -حسب هذه الرؤية- على بره بوالديه وطاعته لهما وتنفيذه أوامرهما ومراداتهما.

ولدك ليس مفطورا على برك كما أنت مفطور على حبه، بل هو يتكلفها تكلفا، وأنت يجب عليك منذ صغره وطفولته أن تعوده وتحمله على برك وطاعتك واحترامك، فهو غير مفطور على ذلك، وإلا لخرج عاقا أو يكاد؛ فليست الرؤوس متساوية في نظر الإسلام وفي تصوره الخاص كما تقول الليبرالية، بل اعتبر الإسلام الأسرة شبه هرمية؛ فالأب مسئول عن رعيته جميعا أما وأولادا، فهو زيادة تشريف وزيادة تكليف، ثم الأم مسئولة عن رعيتها، ثم الأولاد فرض الله عليهم طاعة الوالدين في كل شيء خلا المعصية والإثم وجعله سبيلا للجنة، وفرض على الوالدين تأديب ولدهما وحمله على طاعة الله وإتيان مرضاته ومحاسن الأخلاق، وشرع لهما سبل ذلك، على التفصيل المذكور في كتب الفقه.

ثم هناك أمر آخر شديد الأهمية، يقولون: (الطفل يجب أن يتعلم لا أن يطيع)، (لا تجعل الطفل يدفع ثمن أخطائه، ولكن ابحث معه عن حلول لها)، (ركز على التفكير في حلول للمشكلات المستقبلية، بدلا من التركيز على فرض العقاب).

"التهذيب الإيجابي من الألف للياء" لجان نيلسن، ولين لوت وستيفن جلين، ومقالات أخرى.

لماذا يضعون دائما تناقضا بين شيئين غير متناقضين، ويطلب منك اختيار أحدهما..؟!

ما المانع في الجمع بينهما؟ أن يطيع والديه طاعة مطلقة في غير معصية، ويحترمهما ويبجلهما، وفي نفس الوقت إذا أخطأ يعلم أنه سيؤدب، مع توجيهه وتعليمه مكمن الخطأ وطرائق حله الممكنة ومهارات التعامل مع المشكلات..؟! لا أدري لماذا علينا أن نختار أحدهما ولا يجوز في مذهبهم الجمع بينهما..؟!

أقول لك لماذا..؟!

لأن الليبرالية كما ذكرت لك تعظم اختيار الإنسان وتعظم حريته، وتنفر نفورا شديدا من الحكم عليه وتقييمه طبقا لرؤية غيره خاصة لو كان هذا التقييم أخلاقي يخضع لمعيار متجاوز، فضلا عن تقبل عقوبته وفقا لهذا المعيار لذا ترفض الليبرالية الحدود رفضا قاطعا، والحياة الإسلامية في مجتمع أخلاقب لا تستقيم بغير هذا البتة .

لابد من معرفة الطفل أن لكل خطأ ثمنا؛ قاعدة ربانية وقاعدة حياتية في نفس الوقت، الذنوب عليها عقوبات، هكذا قضى الرب على غير التائب، فتربية الطفل منذ الصغر على أن مغنمه بذنب ما سيعقبه غرم ما ولو كان ضيقا في الصدر وانقباضا في النفس فضلا عن العقوبات الأخرى؛ سيردعه عن السير مع هواه والجري مع شهواته كلما أراد، فهو يعلم أنه يمكن أن يعاقب وقد ترسخت في روعه هذه الكلية.

الفارق الجوهري بين العواقب والعقاب أن العواقب تحمل روح الليبرالية المادية؛ فهي تربي الطفل على الوعي بما سيعقبه أثر مادي يؤثر عليه مباشرة، فتبديد المال مثلا سيعقبه خسارة يرى عاقبتها، وإهمال العمل سيعقبه الطرد من المؤسسة، والخروج عن القانون سيعقبه السجن، وماذا عن الوازع الأخلاقي؟ ماذا عن الذنوب والمعاصي

التي لن يرى عاقبتها مادية في الدنيا؟ ما الذي سيعقب معاشرته حال رشده لفتاة بغير زواج؟

هكذا يشخص أمامنا الفارق بين التربية على تحمل العواقب والتي ستخلو -شئنا أم أبينا- من الوازع الأخلاقي وسينمحي من الحياة لأن مخالفة الأخلاق وعصيان أمر الرب لن يعقبه عواقب، وبين ترسيخ مفهوم العقاب البدني الذي انبنى عليه عقوبة الآخرة وعقوبات الإسلام "الحدود" في الدنيا.

هذا إن سلمنا بأن الطفل يترك فعليا لتحمل عواقب أفعاله وهو أمر غير صحيح؛ لأنه ما من موقف يمر على الطفل إلا وستقول لك التربية الإيجابية ابحث معه عن حل، دعه يتحمل عاقبة فعله لكن أعلمه أنك تتفهم مشاعره وأن العواقب مؤلمة حقا -وهذا ما يفرغ مفهوم العاقبة من مضمونه-

فكذلك حياتيا، تربية الطفل منذ الصغر على أن الأخطاء لها أثمان؛ تجعله أصلب وأصلد عودا، مستعدا لتحمل نتيجة ما اقترف، سواء مع الأصدقاء والأصحاب والأقارب، أو حتى في عالم العمل، تخيل معي مدير عمل عاقب موظفه على تقصير ما؛ فقال له الموظف: ابحث معي عن حل لما تسببت فيه ولا تعاقبني!! هل ينتظره غير الطرد..؟!

الطفل الذي تلقى تربية إيجابية بهذا الشكل، لا يتحمل مسئولية خطأه وإن ادعوا عكس ذلك، فهو معتاد أن من أمامه سيغفر له وسيتجاوز عن خطأه بل ويبحث له أو معه عن حل، فيفاجأ بالعالم الحقيقي بعد الكبر، بأن لكل خطأ ثمنا وأنه يدفعه في أغلب الأحيان، فلفرط ضعفه وهشاشته وعدم احتماله شدائد الحياة وقسوتها يصاب بالأمراض النفسية التي ضربت الجيل المعاصر وانتشرت فيه انتشار النار في الهشيم.

فالصواب الذي لا محيد عنه في التصور الإسلامي أن الرؤوس ليست متساوية، والأسرة هرمية الشكل، فيها قائد ورئيس وفيها نائب للرئيس ومعاون وفيها أتباع،

أي أن الأب هو رب الأسرة وله مكانة خاصة وولاية وقوامة، تليه الأم القيمة على المنزل ومن فيه، وأنهما أعلى قدرا ووزنا من الأطفال، وأن لهما سلطة عليهم توجب احترامهما وتقديرهما وطاعة أمرهما، وأنها كذلك تخولهم تمرينهم وتعويدهم محاسن الأخلاق وما يجري على مراد الله من الأقوال والأفعال، وهذه السلطة تتيح لهم تأديب الولد ومعاقبته إذا أخطأ أو اعوج، بما يرونه مناسبا من العقاب وبما يتوافق مع الشرع وحدوده وضوابطه.

هذه الرؤية الكلية المتناقضة مع التربية الإيجابية المتلبرلة؛ ينتج عن كل منهما مئات التصرفات المختلفة في مئات المواقف.

٢ -وهم الاختيار:

إذا كان الوالد يجب عليه ألا يفرض على طفله احترامه ويحمله على ذلك حملا، والطفل في تصور ليبراليي التربية الإيجابية متفرد متميز لا يستحق إلا الأفضل، وحتى لو أخطأ فلا تحكم عليه أو تقوّم فعله أو تعاقبه لئلا تجرحه، بل ابحث معه عن حل = فلم يبق إلا أن البحث عن الحل والاختيار في الواقع يجب أن ينبع منه هو، فتقوم أنت بتعديد الخيارات أمامه وهو يختار ما يناسبه وما يحبه.

يقول أصحاب التربية الإيجابية :

(امنح طفلك فرصة لكي يُفاضل بين اختيارات مفتوحة -في المواعيد النهائية مثلا- تُعيد تحديدها بالاتفاق معه، حدد له اختيارين في المواقف المختلفة في بداية عمره، مثلا يمكن أن تسأله: "هل تريد أن تضع حذاءك أولا أو سترتك؟" على أن تكون الاختيارات في البداية غير معقدة وتكون كلها في إطار المسموح به، ودع الاختيارات تزداد وتتنوع وفقا لعمره).

وفي كتاب "التهذيب الإيجابي :"

(امنح طفلك فرصة الاختيارات بين خيارين مقبولين على الأقل).

جملة ساذجة.. وطرح سخيف.. لكننا للأسف مجبرون على مناقشة السذاجة والسخف.

حسنا.. هل تثق في اختيارات ابن السادسة أو الثامنة..؟! ماذا لو اختار دائما طعاما غير مفيد ولا يبني جسده جيدا؟ وماذا لو اختار ملابس لا تناسب الفصل خفيفة في الجو القارص أو ثقيلة في الصيف؟ هل تجبره على تغيير الاختيار أم تتركه..؟!

سيقول لك: بل أقدم له خيارين مفيدين من صنعي أنا، وطبقا لمعاييري في مصلحته.. وطبقا لعبارتهم: لا تجعل الخيار غير (ملائم)، بل امنحهم خيارا (مقبولا).

وهل تصدق هكذا أنه يختار، ويتعلم مسئولية اختياره كما تزعم وأنت تقدم له خيارين مفيدين ومقبولين ومن صنعك..؟ !

وعندما تكون كل الخيارات آمنة صحية لا ضرر فيها؛ هل هذا يساعده على التعلم والتقييم ومواجهة العالم الحقيقي..؟!

هذا للأسف وهم الاختيار.. أنت تتوهم أنك تخيره، بينما أنت من يختار ويقرر، كمثل الأنظمة الطاغوتية التي لا تترك لشعوبها في المسائل الحيوية إلا خيارين أو ثلاثة، كلهم من صنعها وفي مصلحتها ويصب فيما تريد في النهاية، فهذا ليس اختيارا بل هو وهم، ووهم كبير لأنك تظن بسذاجة بالغة أن العالم الحقيقي على هذه الصورة.

مع أن وهم الاختيار هذا الذي لا يمكن تحقيقه إلا في بيئات ثرية تملك الاختيار بين البيض الأومليت والكورن فلكس، ماذا عن الأسر الفقيرة والمتوسطة التي لا تملك أن تقدم لأطفالهم خيارين..؟ بل هو فول وطعمية وفقط.

وماذا عن الطفل الذي لا يريد أي خيار من خياريك الاثنين، ويريد خيارا ثالثا أو رابعا أو خامسا؟ هل ستجبره على أحد الخيارين أم تنفذ له رغباته؟ إن أجبرته فليس

ثم اختيار كما تزعم، وإن نفذت رغبته المطلقة فقد انصعت أنت له وهذا عواقبه وخيمة، كلا التصرفين يهدم وهم الاختيار الذي تظنه .

وهم الاختيار هذا هو صورة مصغرة لليبرالية والتصويت في الانتخابات وقبول رأي كل ذي رأي، أي أنه سحب للتنظير السياسي إلى عالم التربية، حيث تحول لوجوب مشاركة الأطفال في عمليات التخطيط للقرارات واتخاذها، حتى صرحت جان نيلسون في أول كتابها ص٦ عن اجتماعات الأسرة بوجوب الحصول على إجماع الأصوات إذا كانت المشكلة تخص كل الأفراد.. مع أن الديموقراطية لا تستلزم الإجماع

وهم الاختيار رفاهية وترف لا وجود له في عالم الواقع الحقيقي القاسي، لا تسير الدنيا بهذا الشكل، وليس لك في كل موقف خياران وثلاثة، بل في كثير جدا من المواقف والمشاكل هو طريق واحد وسبيل واحد، وتعويد الطفل على أن له الخيار دوما يجعله ينهار إذا قابل مئات المواقف بلا خيارات أصلا، فهو لم يجرب في طفولته كيفية التوافق مع خيار واحد، ولم يعتد التكيف على أي وضع وضع فيه جبرا، ولم يتمرن على حل مشكلة ذات سبيل أوحد، بل يظل يبحث عن الأسهل والمريح والأوفق كما كان يفعل وهو طفل، حيث لا يجد، والنتيجة معروفة؛ هشاشة فانكسار فاكتئاب ومرض نفسي، وعيادة يتردد عليها.

بالإضافة إلى نقطة أخرى في غاية الأهمية، وهي عكس مراد أصحاب التربية الإيجابية ومناقضة للنتيجة التي يرجونها، وهي أن الأطفال في مراحلهم العمرية الأولى يحتاجون أن يعرفوا ما المطلوب منهم بالضبط، فالطفل بدون تعليمات واضحة يصبح مشوشا، ولن يشعر بالسعادة والأمان كما تتوقع من تعديد الخيارات أمامه.

يقول أحد الكتاب النفسيين الغربيين أن الطفل في سنواته المبكرة الأولى يكون في حاجة لمعرفة ما هو المطلوب منه فعله، قبل قيامه بالتفكير فيما يجب عليه فعله، وأن الطفل في تلك السنوات يعيش في عالم من الشعور والاكتشاف أكثر من المنطق

والتفكير، ولن يحصل الطفل على المساعدة إذا جربنا معه استخدام المنطق والمعقولية، فهو معتمد تماما على والديه في تحديد المهام، وفي حاجة إلى تعليمات محددة يقوم بتنفيذها، ويرتبك الطفل إذا طُلب منه أن يمنطق الأمور وأن يقرر لنفسه المسار.

يقول الطبيب النفسي الدكتور مارتن كوهين: الأمان يتحقق بالسلطة الأبوية، وأطفالنا يشعرون بخوف بالغ عندما يفتقدون السلطة التي يفرضها عليهم الأبوان .

إذن لسلطة الأبوين أثر بالغ في اعتدال وتوازن نفسية الطفل من خلال إشعاره بالأمان، بل ربما تفسر كثير من أشكال عناد الأطفال بأنها طلب من الطفل إلى الأب بأن يكون أبا حقا وأنه فعلا مصدر الأمان حقيقة لا ادعاء .

ثم إن هذه السلطة تتفعل في شكل طاعة الطفل لوالديه وما يفرضانه عليه من أوامر، حتى قال أحد المختصين النفسيين :

ما يحتاجه الأطفال فعلا أو ما يرغبونه هو الاحتكاك مع ضغط منتظم يفرضه الأبوان، مما يجعله مهتديا إلى الطريق الصحيح، وواحدة من أكثر مطالب الطفل قوة، هو أن يكون أبواه من هؤلاء الذين يفهمون دورهم في الخطة الديناميكية التي تسير العائلة، يطلب منهما أن يكونا له المثال، أن يقودا ، يرشدا ، يوجها ، يصححا ويشجعا ، الأولاد يريدون أن يعرفوا أن هناك من يمسك باللجام، يريدون أن يعرفوا من يتبعونه، من سيقود ، لمن يتقدمون بأسئلتهم .

كل هذا متناقض مع مناهج التربية الإيجابية، التي تدعي الحزم، لكنها تجعل الطفل ندا وتعرض للأبوين سلطة منقوصة، تدعي الحزم، لكنها تجعل للطفل اختيارا في كل موقف، تدعي الحزم، لكنها تربي ميني طاغوت يعظم لديه اختياره وتتضخم مراداته وتكبر ذاته، فلا يطيق مخالفتها عند الكبر، ولم يتعود على الطاعة كما ينبغي .

فوهم الاختيار الذي تشحن به التربية الإيجابية الآباء والأمهات والمربين في تعاملهم مع الأطفال ليس صائبا ولا مطلقا مفتوحا هكذا، حتى عند بعض هؤلاء الغربيين الليبراليين من أهل التربية، مع التنبه إلى تسببه فيما ذكرت من هشاشة عند الكبر.

٣ -الغاية والوجهة

يقول زج زجلر في كتابه "طرق فعالة للتربية الإيجابية للطفل في عالم متغير :"

(لقد نجحنا -أنا وزوجتي- في تنشئة أبنائنا الأربعة ليشبوا وهم في صحة جيدة سعداء منتجين).

ويقول:

(ثم يأتي السؤال التالي لجمهور المستمعين، كم منكم يؤمن أنه إذا تم تعليم تلك الصفات للابن في البيت ثم تشدد عليها في المدرسة؛ أليس هذا قادرا أن يمنحنا أفضل مواطن، مع إتاحة فرصة طيبة لأن يكون ناجحا سعيدا؟).

وفي دورات التربية الإيجابية المشروحة في بلادنا؛ ستسمع من المدربين والمدربات كلاما كثيرا عن تعليم الطفل إدارة المال، وكيفية إدخاره، وتعويده على المشاريع الصغيرة ودخول السوق؛ لشراء ما يحب بعد ذلك.

إذا قرأت في كتب الغربيين ومن تبعهم من بني جلدتنا في هذه المجالات، لن تحصي عدد مرات ذكر الانتاج وربطه بالسعادة وتحصيل المال وإدارة الوقت لأجل هذه الغاية، حتى يترسخ في روعك مبادئ الحياة الرأسمالية الاستهلاكية وأنت لا تشعر، وربما تشعر وتعي لا فرق، ولا ينسون تكرار أن ينشأ الطفل مواطنا صالحا لا يخالف القوانين.

تحمل المسئولية، وتحقيق الذات، وخصائص النجاح، وتعظيم المهارات = كل ذلك يخضع لمعناه ليبراليا، ثم أهميته تكمن في أنه السبيل لنفس الغاية.. النجاح المادي.

غاية التربية الإيجابية الليبرالية ووجهتها النهائية إخراج مواطن صالح، منتج، ناجح في الحياة، ثم هي لا تدعك تفسر النجاح على هواك، بل هو النجاح المادي، والغنى والمال والمكانة.

قل لي بربك، ماذا ستكون وجهة الحياة وهدفها في مجتمع علماني ليبرالي لا يبالي بدين ولا عقيدة ولو كانت النصرانية غير المادة والمال..؟ !

هذه الوجهة ستتحطم لو ابتلي الولد عند الشباب أو الكبر بالفقر والعوز والحاجة، أو بمرض مقعد -كما شاهدت من طفل مسلم في الغرب كسر ذراعه ففاه بأقسى وأسوء اعتراضات على القدر يمكن أن تسمعها-، أو أي بلاء لم يستعد له، وليس مشدودا لدار آخرة ينتظر فيها ثوابه، ويجازى فيها عن صبره، ولذلك تعاني أمم الغرب كافة من وطأة مشكلة الشر وضغطة بلاءات الحياة؛ ليصابوا بالاكتئاب والأمراض النفسية أول الطريق ثم ليلحدوا وينتحروا في النهاية، بعد أي تجربة فاشلة أو اختبار شديد من اختبارات الدنيا ومطباتها وما أكثرها، بل حتى الحصول على درجات منخفضة في اختبارات الدراسة تهوي بالفتى والفتاة قاع بئر مظلم من فرط هشاشته وضعفه.

ولذلك الإسلام يضع لك غاية مختلفة، ووجهة أخرى، وهي إرضاء الله في كل فعل ومجاهدة النفس والشيطان والدنيا والكفار لإرساء كلمة الله في الأرض وإقامة دينه، ويعرفك أن الدنيا دار بلاء واختبار ونصب ومشقة، وليست مكانا للسعادة والراحة، وأنك مخلوق للعبادة، وتحقيق العبادة دائما يكون باختبار وامتحان وبلاء، فتستعد للبلاء وتتخذ عدته من الصبر والرضا واليقين والأنس بالله، ثم يأمرك -لتقوى نفسك وتتصلب- بالاخشوشان في الحياة فإن النعمة لا تدوم، وألا تلبي رغبات نفسك المباحة باستمرار؛ فتجرك للحرام مع الوقت "كنا نترك تسعة أعشار الحلال مخافة الحرام"، "أفكلما اشتهيت اشتريت..؟."!

والواجب والمتعين عليك كمسلم إنشاء الطفل على هذه الكليات والركائز، وأن يشد إليها في كل موقف قدر الاستطاعة؛ فيشب منصرف الوجه للّه العظيم وللدار الآخرة، ولو لم يحقق مكانة اجتماعية ما، أو لم يكن منتجا بمعايير الرأسمالية المادية.

ستقول لي :

لنغير السائل الذي في الوعاء، ونضع أهدافا جديدة تتوافق مع الإسلام، وغايات أخرى تجري على مراد الرب، ونسلك سبيلا آخر في تحقيقها..؟!

أقول:

ماذا بقي لك بعد من "التربية الإيجابية" بعد تغيير الكليات والركائز..؟! الاسم فقط بلا مضمون..؟! وما فائدة ذلك وقد غيرت الوجهة والغاية وسلكت سبلا وطرائق مختلفة لتحقيقها..؟!

تذكرني بمن يريد الديموقراطية وهي حكم الشعب، لكن مع إفراد اللّه بالحكم، والتحاكم للشريعة في كل جزئية، ومنع الحكم بقانون وضعي بشري، وحظر الحكم بأي أيدولوجيا مصادمة لدين اللّه! هل بعد كل هذا الحذف والإضافة بقي له شيء من الديموقراطية إلا اسمها..؟ ولماذا ساعتها لا يصرح بأن الغاية هي حكم اللّه لا حكم البشر..؟!